شعرية التأمل وآليات إنتاج المعنى: نحو قراءة أدبية في كتاب "استظهارات فكر" للدكتور أحمد بن عبدالله العبدالنبي

مقدمة

ينتمي كتاب استظهارات فكر للدكتور أحمد بن عبدالله العبدالنبي إلى الكتابة التأملية التي تقف عند تخوم الأدب والفكر والتدبر، حيث يتحول النص القرآني من مرجع ديني إلى منبع لإنتاج خطاب تأملي جديد يسعى إلى استنباط دلالات تتصل بالإنسان المعاصر وأسئلته الوجودية والمعرفية.

ولا تكمن أهمية الكتاب الذي صدر عن مطبوعات النورس في المملكة العربية السعودية في الأفكار التي يطرحها فحسب، وإنما في الكيفية التي تتولد بها تلك الأفكار من اللغة، وفي طبيعة العلاقة التي يؤسسها المؤلف بين النص الأصلي – الآية القرانية - والنص الجديد – التفسير/التأويل - الذي يكتبه.

العنوان بوصفه عتبة نصية

يكتسب عنوان "استظهارات فكر" قيمة دلالية خاصة، لأنه يقوم على انزياح لغوي واضح.

فالمألوف في هذا النوع من المؤلفات عناوين من قبيل:

خواطر قرآنية تأملات تدبرات إشراقات

أما لفظة "استظهارات" فتشي بحركة كشف وإبراز وظهور بعد خفاء.

ومن منظور نقدي، يشير العنوان إلى أن الفكر ليس معطى جاهزًا، بل نتيجة عملية استخراج وتأويل مستمرة. لذلك فإن القارئ يدخل النص وهو يتوقع أن يشهد عملية تشكّل المعنى لا مجرد استقبال نتائج نهائية.

وبهذا المعنى يتحول العنوان إلى برنامج قرائي كامل يعلن منذ البداية مركزية التأويل في الكتاب.

شعرية التأمل

من أبرز السمات الأدبية التي يمكن رصدها في مثل هذا العمل حضور ما يسمى:

بشعرية التأمل.

فالنص لا يعتمد السرد أو الحجاج المنطقي الصارم، وإنما يعتمد الانتقال من الآية إلى التأمل ومن التأمل إلى الصورة الفكرية.

وهنا تصبح اللغة أقرب إلى:

لغة المقالة الأدبية. لغة الحكمة. لغة الشذرات الفكرية.

ولا تتأسس قيمة النص على البرهنة بقدر ما تتأسس على الإيحاء.

فالقارئ لا يطالع تفسيرًا بقدر ما يستقبل تجربة ذهنية وروحية معًا.

التناص مع النص القرآني

يمثل التناص العنصر المركزي في الكتاب.

فكل استظهار يقوم على علاقة مع نص سابق يمتلك سلطة رمزية وجمالية كبرى هو النص القرآني.

ومن هنا يمكن القول إن المؤلف لا يكتب في فراغ، بل يتحاور باستمرار مع نص مرجعي حاضر في خلفية الخطاب.

وتتخذ هذه العلاقة ثلاثة مستويات:

المستوى الأول: الاقتباس

حيث تكون الآية نقطة الانطلاق.

المستوى الثاني: التأويل

حيث تُنقل الآية من معناها المباشر إلى مجال فكري أوسع.

المستوى الثالث: إعادة الإنتاج

حيث يتحول النص القرآني إلى خطاب جديد يكتسب استقلاله النسبي عن نقطة انطلاقه.

وهذا ما يمنح الكتاب طابعه الحواري ويجعله أقرب إلى الأدب التأملي منه إلى التفسير التقليدي.

الذات الكاتبة

على الرغم من حضور الآيات في الكتاب، فإن القارئ يكتشف سريعًا حضور "الأنا المفكرة".

فالاستظهارات ليست محايدة بشكل كامل، وإنما تعكس رؤية صاحبها للعالم والإنسان والمجتمع.

وتبرز الذات الكاتبة من خلال:

اختيار الآيات. نوع الأسئلة المطروحة. طبيعة القضايا المعاصرة المستحضرة. زاوية النظر إلى الواقع.

ومن ثم فإن الكتاب يمكن قراءته أيضا بوصفه سيرة فكرية غير مباشرة للمؤلف.

اللغة بين الفكر والأدب

تكمن إحدى أهم خصائص الكتاب في محاولته الجمع بين مستويين متباعدين عادة:

المستوى الفكري. المستوى الأدبي.

فاللغة لا تتخلى عن بعدها المعرفي، لكنها لا تستسلم كذلك للجفاف الأكاديمي.

ومن المرجح أن القارئ يجد نفسه أمام لغة:

كثيفة الدلالة. موجزة التعبير. قائمة على التأمل. مشبعة بالإيحاء الرمزي.

وهذه سمة تجعل النص قابلاً لإعادة القراءة أكثر من مرة.

حدود التجربة النقدية

يمكن تسجيل ملاحظة نقدية مهمة:

إن الكتابة التأملية تواجه دائمًا خطرين متناقضين:

الأول: الإفراط في التقريرية.

والثاني: الإفراط في الذاتية.

فحين يطغى الوعظ تفقد اللغة بعدها الأدبي، وحين يطغى التأويل الشخصي قد يبتعد النص عن مرجعيته الأصلية.

لذلك تتحدد قيمة الاستظهارات بمدى نجاحها في تحقيق التوازن بين عمق الفكرة وجمال التعبير.

خاتمة

يمكن النظر إلى استظهارات فكر بوصفه نصًا يندرج ضمن أدب التأمل المعاصر، حيث يتحول التدبر إلى ممارسة جمالية ولغوية بقدر ما هو ممارسة فكرية. ويكمن رهان الكتاب في قدرته على تحويل الآية من نص يُقرأ إلى أفق للتفكير، ومن معنى مستقر إلى معنى متجدد.